من غَزَل الفقهاء

للأستاذ علي الطنطاوي

قال لي شيخ من الشايخ المتمتين ، وقد سقط إليه عدد من الرسالة ، فيه مقالة لي في الحب :

— مالك وللحب ، وأنت شيخ وأنت قاض ، وليس يليق بالشيوخ والقضاة أن يتكلموا في الحب ، أو يعرضوا للغزل ؟ ! إنما يليق ذلك بالشعراء ، وقد نزه الله نبيه عن الشعر ، وترفع العلماء وهم ورثة الأنبياء عنه ، وصرح الشافعي أنه يزري بهم ، ولولا ذلك لكان أشعر من لبيد ...

فضحكت ، وقلت له :

— أما قمت مرة في السحر ، فأحسست نسيم الليل الناعش ، وسكونه الناطق ... وجماله الفاتن ، فشعرت بعاطفة لا عهد لك بمثلها ، ولا طاقة لك على وصفها ؟

أما سمعت مرة في صفاء الليل نغمة عذبة ، من مغنٍّ حاذق قد خرجت من قلبه ، فهزت منك وتر القلب ، ومست حبة الفؤاد ؟

أما خلوت مرة بنفسك تفكر في الماضي فتذكر أفراحه وأتراحه ، وإخوانا كانوا زينة الحياة فطواهم الثرى ، وعهداً كان ربيع العمر فتصرم الربيع ، فوجدت فراغا في نفسك ، فتلفت تفتش عن هذا الماضي الذي ذهب ولن يعود ؟

أما قرأت مرة قصة من قصص الحب ، أو خبرا من أخبار البطولة فأحسست بمثل النار تمشي في أعصابك ، وبمثل جناح الطير يخفق في صدرك ؟

أما رأيت في الحياة مشاهد البؤس ؟ أما أبصرت في الكون روائع الجمال ؟ فمن هو الذي يصور مشاعرك هذه ؟ من الذي يصف لذائذك النفسية وآلامك ، وبؤسك ونعماك ؟ لن يصورها اللغويون ولا الفقهاء ولا المحدثون ، ولا الأطباء ولا المهندسون . كل أولئك يعيشون مع الجسد والعقل ، محبوسين في معقلهما ، لا يسرحون في فضاء الأحلام ، ولا يوغلون في أودية القلب ، ولا يلجون عالم النفس ... فمن هم أهل القلوب ؟

إنهم الشعراء يا سيدي ، وذلك هو الشعر !

إن البشر يكدّون ويسعون ، ويسيرون في صحراء الحياة وقيد نواظرهم كواكب ثلاثة ، هي هدفهم وإليها المسير ، ومنها الهدى وهي السراج المنير ، وهي الحقيقة والخير والجمال ، وإن كوكب الجمال أزهلها وأبهاها ، إن خفي صاحباه عن بعض الناس فما يخفى على أحد ، وإن قصرت عن دركهما عيون فهو ملء كل عين ، والجمال بعدُ أسّ الحقائق وأصل الفضائل ، فلولا جمال الحقيقة ما طلبها العلماء ، ولولا جمال الخير ما دعا إليه الصلحون ، وهل ينازع في تفضيل الجمال إنسان ؟ هل في الدنيا من يؤثر الدمنة المقفرة ، على الجنة الزهرة ؟ والعجوز الشوهاء على الصبية الحسناء ؟ والأسمال البالية على الحلل الغالية ؟

فكيف يكون فيها من يكره الشعر ، وهو جمال القول وفتنة الكلام ؟ وهو لغة القلب فمن لم يفهمه لم يكن من ذوي القلوب . وهو صورة النفس ، فمن لم يجد فيه صورته لم يكن إلا جماداً . وهو حديث الذكريات والآمال ، فمن لم يذكر ماضياً ولم يرجُ مستقبلا ، ولم يعرف من نفسه لذة ولا ألماً ، فليس بإنسان .

* * *

ومن قال لك يا سيدي إن الله نزه نبيه صلى الله عليه وسلم عن الشعر لأن الشعر قبيح ؟ إنما نفى عنه أن يكون شاعراً كما عرف العرب من الشعراء ، وردّ عليهم قولهم : « إنه شاعر » لأن الشاعر يأتيه الوحي من داخل نفسه ، والنبي يجيئه الوحي من السماء ، وهذا الذي لم تدركه العرب ، فقالوا قولتهم التي ردّها الله عليهم !

وأين وجدت حرمة الشعر ، أو مذمته من حيث هو كلام جميل ، يصف شعوراً نبيلا ؟ إنما يقبح إذا اشتمل على الباطل كما يقبح كل كلام يشتمل عليه .

ومن أين عرفت أن العلماء قد ترفعوا عنه ، والكتب مملوءة بالجيد من أشعارهم ، في الحب والغزل ووصف النساء ؟

أو ما سمعت بأن النبي صلى الله عليه وسلم أصغى إلى كعب وهو ينشد في قصيدته التي يتغزل فيها بسعاد ... ويصفها بما لو أ

عليك مثله لتورعت عن سماعه ... وتصامت عنه ، وحسبت أن التقى يمنعك منه وذهبت تلوم عليه ، وتنصح بالإقلاع عنه قائله ...

وما سعاد غداة البين إذ برزت
إلا أغنُّ غضيض الطرف مكحول
تجلو عوارض ذى ظَلم إذا ابتسمت
كأنها مُنهل بالراح معلول
هيفاء مُقبلةً عجزاء مدبرةً لا يشتكى قصر منها ولا طول

وأن عمر كان يتمثل بمثل ما تكره أنت ... من الشعر ، وأن ابن عباس كان يصغى إلى إمام الغَزِلين عمر بن أبى ربيعة ، ويروى شعره ؟ وأن الحسن البصرى كان يستشهد فى مجلس وعظه ، بقول الشاعر :

اليوم عندك دَلُّها وحديثها وغداً لغيرك كفها والمعصم

وأن سعيد بن المسيب سمع مغنيا يغنى :

تضوَّع مسكا بطن نعمان أن مشت ... به زينب فى نسوة خفرات

فضرب برجله وقال : هذا والله مما يلذ استماعه ، ثم قال :

وليست كأخرى أوسعت جيب درعها
وأبدت بنان الكف للجمرات
وعلّت بنان المسك وحفاً مُرَجَّلا
على مثل بدر لاح فى الظلمات
وقامت ترائى يوم جمع فأفتنت برؤيتها من راح من عرفات

فكانوا يرَون هذا الشعر لسعيد بن المسيب !

* * *

ومالى أدور وأسوق لك الأخبار ، وعندنا شعراء كان شعرهم أرق من النسيم إذا سرى ، وأسقى من شعاع القمر ، وأعذب من ماء الوصال ، وهم كانوا أئمة الدين وأعلام الهدى .

هذا عروة بن أذينة الفقيه المحدث شيخ الإمام مالك يقول[1] :

ان التى زعمت فؤادك ملها خُلقت هواك كما خلقت هوى لها
فبك الذى زعمت بها وكلاكما يبدى لصاحبه الصبابة كلها
ويبيت بين جوانحى حبٌّ لها لو كان تحت فراشها لأقلها
ولعمرها لو كان حبك فوقها يوماً وقد ضحيت إذن لأظلها
وإذا وجدت لها وساوس سلوة شفع الفؤاد إلى الضمير فسلها

(١) الأغانى الجزء ٢١ . ٢٤ . ٢٦

بيضاء باكرها النعيم فصاغها بلباقة فأدقها وأجلها
منعت تحيتها فقلت لصاحبى ما كان أكثرها لنا وأقلها !
فدنا فقال ، لعلها معذورة من أجل رقتها ، فقلت : لعلها!

هذه الأبيات التى بلغ من إعجاب الناس بها أن أبا السائب المخزومى لما سمعها حلف أنه لا يأكل بها طعاماً إلى الليل !

وهو القائل ، وهذا من أروع الشعر وأحلاه ، وهذا شعر شاعر لم ينطق بالشعر تقليدا ، وإنما قال من شعور ، ونطق عن حب ، فما يخفى كلام المحبين :

قالت (وأبثتها وجدى فبحت به) :
قد كنت عندى تحب الستر ، فاستتر
ألست تبصر من حولى؟فقلت لها: غطى هواك وما ألقى على بصرى

هذا الشاعر الفقيه الذى أوقد الحب فى قلبه نارا لا يطفئها إلا الوصال :

إذا وجدت أوار الحر فى كبدى عمدت نحو سقاء الماء أبترد
هبنى بردت ببرد الماء ظاهره فمن لحر على الأحشاء يتقد ؟ !

وهذا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، أحد فقهاء المدنية السبعة الذين انتهى إليهم العلم ، وكان عمر بن عبد العزيز يقول فى خلافته[1] : لمجلس بن عبيد الله لو كان حيا ، أحب إلى من الدنيا وما فيها . وإنى لأشترى ليلة من ليالى عبيد الله بألف دينار من بيت المال ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، تقول هذا مع شدة تحريك وشدة تحفظك ؟ قال : أين يُذهب بكم ؟ والله إنى لأعود برأيه ونصيحته ومشورته على بيت المال بألوف وألوف . وكان الزهرى يقول : سمعت من الدلم شيئا كثيرا ، فظننت أنى اكتفيت حتى لقيت عبيد الله فإذا كأنى ليس فى يدى شىء !

وهو مع ذلك الشاعر الغزل الذى يقول :

شققت القلب ثم ذررت فيه هواك فليم فالتام الفطور
تغلغل حب عثمة فى فؤادى فبادیه مع الخافى يسير
تغلغل حيث لم يبلغ شراب ولا حزن ولم يبلغ سرور

أفسمعت بأعمق من هذا الحب وأعلق منه بالقلب ؟ ولم يكن يخفى ما فى قلبه ، بل كان إذا لقيه ابن المسيب فسأله : ألا تنت الفقيه الشاعر ؟ يقول : « لا بد للمصدور من أن ينفث » فلا

(١) ابن خلكان فى الوفيات .